

البديع : تشقيق الظواهر مع غيبة الدلالات الفنية

لم يكن ابن المعتز حين استخدم كلمة « البديع » عنوانا لكتابه يقصد بها المعنى الذى تطورت إليه عند البلاغيين منذ عصر السكاكى وأتباعه ، وإنما كان يقصد بها دلالتها المعجمية بمعنى الشيء الطريف أو الجديد الذى لم يسبق إليه ، ولذلك شملت كل ما يصدق عليه هذا المفهوم من الظواهر البلاغية مما كان يدعيه بعض الشعراء المولدين ، ويزعمون انهم أول من ابتكره واستخدمه فى العربية ، فأراد أن يرد عليهم ادعاءهم هذا بتأليف كتابه سالف الذكر على نحو ما بيناه من قبل . ولم يكن غريبا إذن أن يضم الكتاب بين دفتيه الاستعارة أو نوعا معيناً منها ، بل أن تكون أول ظاهرة يتحدث عنها مادام أنها كانت من بين ما يدعى هؤلاء السبق إليه ، وظل للكلمة هذا المفهوم الذى عناه ابن المعتز زمنا طويلا ، فكان البلاغيون الذين أتوا بعده يطلقونها على الظواهر الخمس التى أطلقها عليها ومن بينها الاستعارة . ثم يضيفون إليها ما يرون أنه جدير بالاضافة . ثم كان التحول فى معناها وتخصيصه على أيدي السكاكى ومدرسته وبه صارت اسما لفرع من فروع الدراسات البلاغية أو - كما هو التعبير الشائع - علما من علومها ، وفى ظل هذا المعنى الاصطلاحي أقصيت الاستعارة منه وأصبح مقصورا عندهم على « وجوه تحسين الكلام » التى تكون إما لفظية أو معنوية .

وكان لهذا التخصيص جنايته على مسار الدرس البلاغى ، فقد عزل الظواهر الأسلوبية بعضها عن بعض ، وأصبح دور « علم البديع » بمقتضاه دورا هامشيا أشبه بالتلوين الخارجى الذى لا تأثير له على جوهر المعنى ، وتأكد ذلك بما جاء صراحة فى تعريفه من أنه « علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة^(١١٤) » وكأن عملية التعبير اللغوى فى

(١١٤) الخطيب القزوينى ، الايضاح ص ١٩٢ .